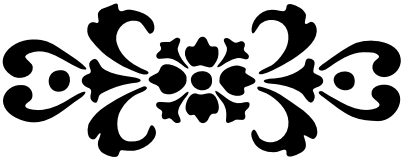

فتى الرصيف

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م
ردمك 7 - 323 - 79 – 9947 - 978 (ISBN)

اسم العمل: فتى الرصيف
اسم المؤلف: بثينة مالكي
تصميم الغلاف: بوغدو محمد إسلام
المدير العام / سميرة منصوري
اخراج: فريق دار المثقف

صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 70 65 85 033 /0666.76.28.50

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

بثينة مالكي

فتى الرصيف

المثقف
للنشر والتوزيع

إهداء:

إلى حسناء الربيع التي لا أنسى فضلها عليّ.....

إلى عائلتي الصغيرة ووالدي.....

إلى أطفـال سـوريا الذيـن يفترشـون الأرض ويلتحفون السماء....

إلى الهـلال الأحمـر التركي الذي سـاعدهم واسـتقبلهم عـلى أراضي تركيا.

فتى الرصيف

أنا فتى نحيف الجسم خدّي يكسوهما كثير من السواد كأنهما فحم وجبيني يتصبب عرقا من جهد الوقوف، لي قبعة تلازمني لتحميني من برد الشتاء وحر الصيف وتخفي كثيرا من الغبار الذي غزا شعري كأنه شيب يغزو شيخا كبير السن، جسمي الهزيل لا يكاد يقوى على السير حتى حذائي لم يصمد فقد استسلم وتمزق من المسافات التي يقطعها.

عرفتموني؟

أنا فتى الرصيف أقف على رصيف المدينة أسمع أصواتا وأرى أناسا ألتفت يمينا وشمالا لعل أحد المارة يتفضل عليّ بالقليل من المال.

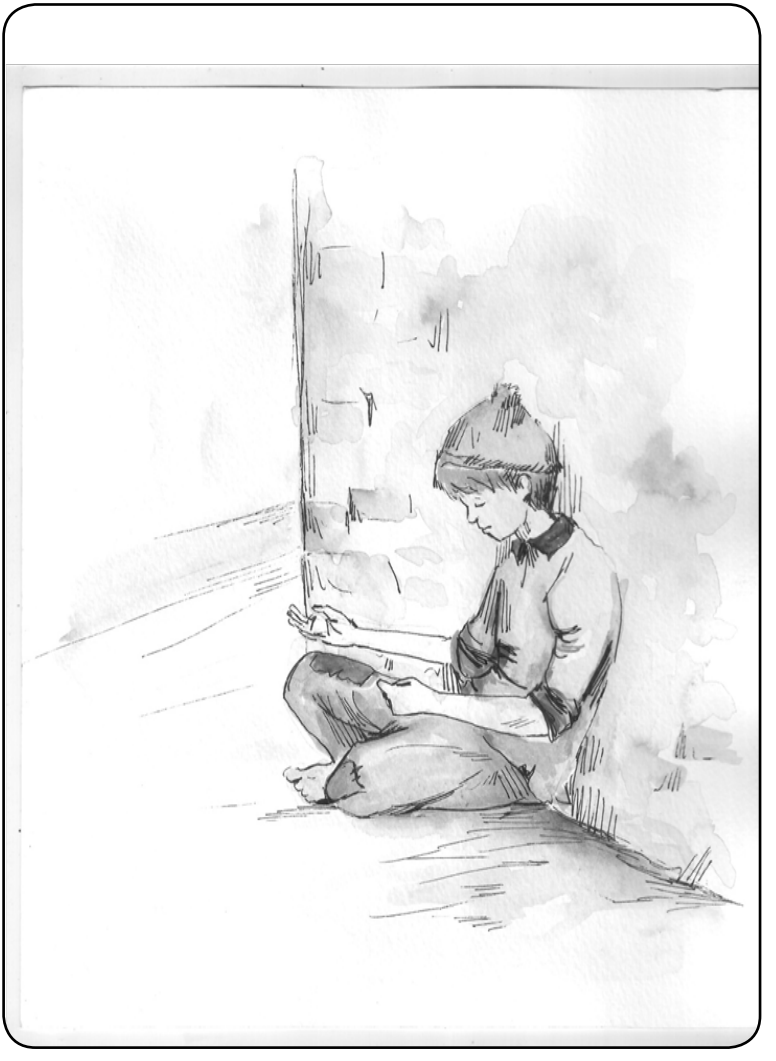

وتمـر السـاعات وأنـا عـلى هـذا الحـال واقفـا واضعـا يـديّ عـلى خـديّ أرى أطفـالا مـن عمـري يرتـدون ثيابـا جديـدة وأنـا أبـدو لهـم كوحـش صغـير بثيـابي الممزقـة.

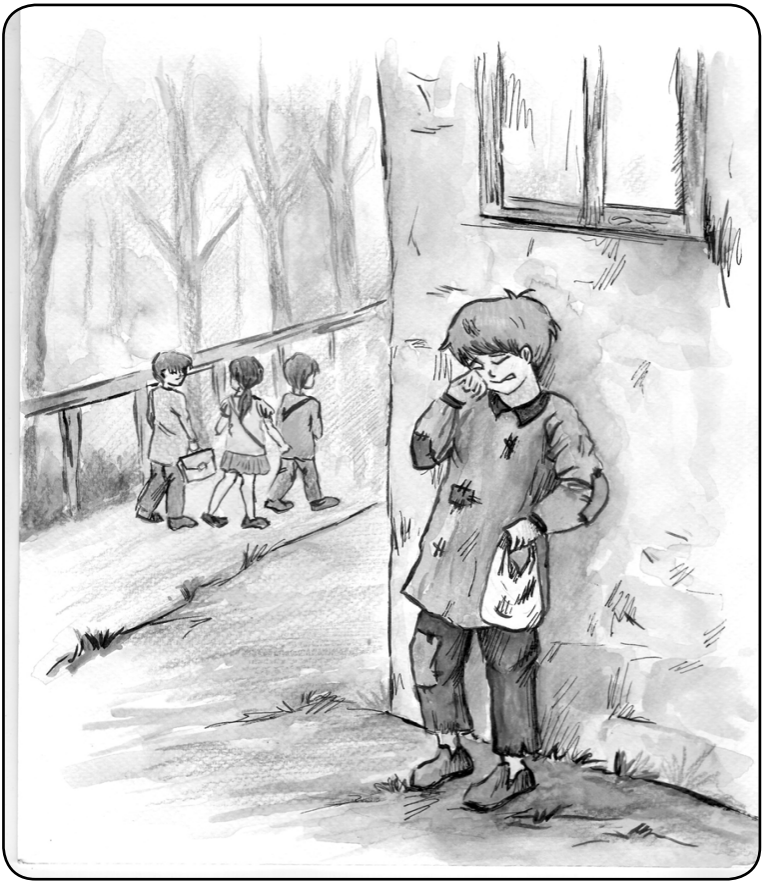

أنفـي يشـم أزكى الروائـح المنبعثـة مـن أشـهى مأكـولات المنـازل والمطاعـم دون أن يتذوقهـا لسـاني فتظـل أمعـائي تتمـزق جوعـا.

كان حـالي يـصرخ: هـل مـن أحـد المـارة يحـضر لي كعكـة أو لعبـة إنّي أشـتهي إحداهمـا.

لا لـم تعـد الكعكـة تعنيـني ولا الألعـاب تسـتهويني فأنـا أحتـاج إلى ركـن يؤويـني فمثـلي يأويـه الشـارع فعندمـا يحـين الليـل أفـترش أكيـاس الدقيـق الفارغـة تشـاركني فيـه قطـط الشـوارع وتجـاورني أكـوام القمامـة.

أسـمع أصـوات الـكلاب ولا أبـالي تعـودت عـلى نباحهـا، أستسـلم لنـوم عميـق ملتفـا بمعطفـي مـن يـراني يحسـبني كومـة مـن القـش.

وفجـأة توقظـني العواصـف والرّعـود فتهـزني الأصـوات وأسـتيقظ وكلي خـوف وفـزع يهجـر النـوم عينـاي فيمـر شريـط حيـاتي أمامـي أنـا الهـارب مـن رائحـة المـوت وأصوات

القصف، أنا مجرد جثة متحركة تفوح منها رائحة الدماء والبارود.

أيامي تمر متشابهة يوم مضى ويوم آت ولا يتغير شيء إلاّ حالتي فهي تزداد سوءا يوما بعد يوم.

أبدأ يومي مشيا عبر الأزقة شبه حاف فالحجارة والزجاج الملقى على الأرض كأنها عقارب تلسع رجليا الصغيرتين.

وكل خطوة أخطوها بصمت وكلي حسرة وحيرة.

وكما تمضي الأيام والشهور تمر الفصول يخبرني الخريف بأوراقه المتساقطة بأن الأمل يتساقط فلا رجعة لي إلى وطني ويليه الشتاء ببرده القاسي يذكرني بقسوة القلوب.

ويأتي الربيع ويزهر أملي بالعودة من جديد وبرحيل الربيع يحل الصيف وبحرارته أزداد شوقا وحنينا إلى طفولتي التي ودّعتها في شوارع الشام بالأمس، أمّا اليوم فأنا أدخل طور الشباب أصارع العيش في بلد ليس فيه أهل ولا خلان.

يشـدني الحنـين إلى وطـني أسـافر بخيـالي كل لحظـة لأهـلي وأقـاربي أسـتجمع صورهـم المشـتتة في ثنايـا ذاكـرتي.

أتسـائل هـل كـبر الصغـار؟ وهـل الكبـار مازالـوا عـلى قيـد الحيـاة ؟ مـن فيهـم فارقهـا ومـن فيهـم بقـي عـلى قيدهـا؟

أتذكّـر بيتنـا الجميـل ورائحـة الياسـمين المنبعثة مـن حديقته لا تـكاد تغـادر أنفي.

أشـتاق إلى طبـخ أمـي وكعكـة العيـد كـم كنـا مسروريـن عندمـا تجتمـع العائلـة وجـيران الحـارة عـلى الحلوة الشـامية.

أتذكـر عندمـا كنـا نذهـب إلى المسـجد لنكبر ونهلـل للعيـد، لـم يتبقـى شـيئا تفرقنـا، أتذكـر جيـدا كانـت أمـي تمشـط لي شـعري وتلبسـني ثيابـا جديـدة بعـد الإسـتحمام، وأخـرج لأهـنئ أقـاربي

بالعيد ثم أمضي اليوم كله برفقة أصدقائي...

وفجـأة تنمحـي تلـك الذّكريـات الجميلـة وتحـل محلهـا صـورة أمـي وهـي تضـم أخـي الصغـير إلى صدرهـا بقـوة

فيـم كان أبي يضـع يديـه عـلى أذنـاي كي لا أسـمع صـوت القصـف ينهـال عـلى بيتنـا فيحولـه إلى ركام.

ولا يكاد يبرح سمعي صراخ أمي وبكاء أخي كأنهم معي.

أتذكـر آخـر مـرّة رأيـت فيهـا أمـي كانـت في رواق المستشـفى الـذي كان يكتـظ بالجرحـى ويـكاد ينعدم من الأطبـاء وحالات الفـوضى والطـوارئ الـتي كانـت تعـم المـكان هـذا جريـح وآخـر انتقـل إلى رحمـة اللّـه كنـت أقـف وأحـدّق في المـكان وكلي رعـب وإذا بـأبي يمسـك بيـدي لنغـادر المستشـفى بـلا رجعـة ومـن ثمـة اقتادونـا خـارج المستشـفى ووجهونـا نحـو حافـلات كانـت تكتـظ بالمواطنـين وكانـت القـوات المسـلحة تجبرنـا عـلى مغـادرة البـلاد لوجهـة أخـرى وعبرنـا الحـدود بحلـول عـام 2013،

ووجدنـا أنفسـنا في بلـد مجـاور لسـوريا وإذ بنـا نصطـدم بواقـع غـير بعيـد عـن ظـروف الحـرب.

فأنـا الآن أحـد اللاجئـين الفاريـن مـن الحـرب المصدومـين بواقـع مريـر: إنّهـا الغربـة...

كان وجــود أبي يمــدني بالقــوة فــأرى فيــه الأب والوطــن والســند، إشــتغل في أحــد المقاهــي ليكســب قــوت يومنــا

وكان ذلـك المقهـى بمثابـة مخـرج لنـا مـن أزمتنـا لأنـه كان يؤوينـا ليـلا وفي النهـار كان مقـر عمـل أبي، صاحـب المقهـى كان فاضـلا وجـد كريـم معنـا إنـه :العـم(فكـرت) لـم يكـن يدخـر جهـدا لمسـاعدتنا.

بينمـا كان أبي يحـاول أن يحصـل عـلى خـبر عـن مـا يحـدث في سـوريا لعلـه يصـادف معلومـة تطمأنـه عـلى أمـي وأخـي فمنـذ أن رقـد أخـي في المستشـفى وأمـي برفقتـه لـم نتلـق عنهمـا أيـة معلومـة لكـن ذلـك دون جـدوى.

لـم يسـتمر الحـال عـلى ماهـو عليـه فقـد تدهـورت حالـة أبي الصحيـة بعـد أن أصبـح يتعاطـى السـجائر وكانـت حالتـه تسـوء بمـرور الأيـام وعندمـا لاحظـت ذلـك اسـتفسرت منـه عـن حالتـه فلـم يكـن يعطـي لي جوابـا مقنعـا.

وبعـد صمـت طويـل أجابـني: بأنـه مريـض وأنّ أيامـه أصبحـت معـدودة، وكان وقـع الخـبر عـلى مسـامعي كوقـع القصـف عـلى بيتنـا كأن الأرض تهـتز تحـت قدمـيّ، إنّـه السـند والرفيـق والمعيـل.

ومـن جديـد كانـت آخـر مـرة رأيـت فيهـا أبي في المستشـفى وقـد فـارق الحيـاة وتركـني أصارعهـا وحـدي.

هــل مقــدر عليــا أن تكــون آخــر مــرة أرى وجــه أمــي في المستشــفى وكذلــك أبي؟

والآن أنـا جالـس أمـام مبـنى المستشـفى ملتـف بمعطـف أبي أبـكي أصرخ ولا أحـد يسـمعني كأني في قـاع بـئر عميـق، فقـد رحـل أبي وتركـني وسـط الطريـق أكافـح وحـدي.

تحــاورني أســئلة كثــيرة. عــن مصــير اليتيــم المتــشرد بــلا مـأوى ولا معيـل، تـراني امـضي إلى بلـدي أم أبقـى فـتى مـشرد لأصبـح عجـوز الشـوارع؟

هل من يد رحيمة تنتشلني من الفقر والعوز والضياع؟

هل سأستسلم للمصير المحتوم أم أألف؟

لـم يبـق لي حـل سـوى التسـول في شـوارع " اسـطنبول "، أصبحـت فـتى متـشرد يتجـول في شـوارع المدينـة باحثـا عـن بعـض النقـود أو أكلا يسـكت جوعـي.

أنا الآن في بلد لا أعرف لغته ولا عملته.
ألجأ إلى الإشارة كأني أبكم لعل المارة يفقهون ما أطلب.
ولسان حالي يقول: أيها المار أنا لاجئ شجاع سوري الأصل أصارع من أجل لقمة العيش لا أخجل ولا أطأطئ رأسي وكلي إيمان بأن سوريا ستعود وأبنائها سيعودون ويوما ما سيزهر ياسمين الشام وتعود رائحته الزكية بدلا من رائحة الدمار والموت.
أنا بطل لكن لايرتدي زيا خاص كما في أفلام الكارتون، فأنا بطل الشوارع بزي رث وقلب صبور.
عزائي في ذلك أنني لست الوحيد هناك الكثير من أمثالي، آه تذكرت صديقي: "عيسى" وأخاه الأكبر" أدهم " إنّهما مثلي يتجولان في شوارع إسطنبول يعزفان على آلة الناي لعل أحد المارة ينتبه فيجود عليهما بقليل من المال.

لكـن الأمـر لا يـدوم طويـلا فعندمـا تمـر إحـدى سـيارات الشرطـة يفـر عيـسى مسرعـا تسـابق سـاقيه النحيلتـين الريـاح لأن التسـول غـير قانـوني، ومـا إن تغـادر الشرطـة حـتى يعـود إلى مكانـه يعـزف عـلى آلتـه وآخـر النّهـار تجـده متألمـا يشـكو مـن الصـداع ومـن النفـخ وقـد تمكـن منـه التعـب...

لـم أعـد ألتقيـه منـذ زمـن، فـلا أحـد يعرف اسـمي هنـا غيره. أحيانـا ينتابـني الشـعور بـأني عديـم اللقـب فمنذ مـدة طويلة لـم يذكرني أحد باسـمي: فـارس فأبقى أكرر وأدور حول نفسي بصـوت عـال أكررهـا فارس، فارس مـن يراني يظن أنـني جننت. لقد غاب الأمل وحل الألم.

أنـا فـارس أبـكي بصمـت وأتألـم بسـبب الـبرد والجـوع، يـكاد قلـبي يتفطـر مـن الشـوق إلى وطـني وأهـلي وأمـي وأخـي وكلـبي الصغـير تيـدي".

يمـضي يومـي وأنـا صفـر اليديـن لا أملـك سـوى بعـض القـروش تبقـى أحيانـا وكثـيرا مـن الأحيـان تسـقط مـني بسـبب جيـبي الممـزق.

وتمـضي الأيـام والشـهور ويحـل الشـتاء بـبرده القـارص ولياليـه الطويلـة الـتي أقضيهـا في شـوارع إسـطنبول البـاردة دون مـأوى وعندمـا ينهكـني السـير ويسـتنزف قـواي ألجـأ إلى ركـن في الحديقـة العامـة للمدينـة و أفـترش أحـد المقاعـد وألتـف بمعطـف أبي القديـم لأشـم فيـه رائحتـه وأتفقـد قصاصـة كتبهـا لي بيـده يقـول فيهـا: فـارس بطـلي الصغـير اعتـني بنفسـك.

فتنهمـر الدمـوع مـن عينـاي أغفـو قليـلا وأرى طيـف أبي في المنـام يناديـني: فـارس تعـال أنـا انتظـرك في سـوريا.

ومـا هـي إلا لحظـات حـتى يختفـي الحلـم ويأخـذ أبي معـه في طيـات النسـيان ولا يتبقـى لـدي إلاّ قصاصـة لا تسـمن ولا تغـني مـن جـوع.

وتمـر السـاعات وعيـوني يهجرهـا النـوم وتملؤهـا الدّمـوع، حـتى ينقشـع صبـح يـوم جديـد فيـأتي بأمـل جديـد طـال انتظـاره، فأنـا اليـوم اسـتبدلت التسـول بغسـل السـيارات لأكسـب قـوت يومـي منتظـرا ذلـك اليـوم الـذي تـرى فيـه عينـاي أمـي وأخـي ومنزلنـا مـن جديـد.

كـم تشـتاق جوارحـي لرؤيـة غاليـتي وأشـتاق للحديـث معهـا وتقبيـل يدهـا.

أمـاه لاتظـني أني نسـيتك بـل أبحـث عنـك كلمـا نظفـت زجـاج السـيارات أتـرك قصاصـة (أم فـارس : فـارس بانتظـارك أيـن أنـت أطلـت الغيـاب).

ولكني لا أجد الرد وأيأس من انتظاره.

اكتسـبت لغـة الأتـراك حـتى أتمكـن مـن السـؤال عـن أمـي وفي هـذه الأثنـاء تواصلـت مـع أحـد أعضـاء المفاوضيـة المكلفـة بشـئون اللاجئـين يدعـى " عـلي " وشرحـت لـه وضعـي ورحـل وهـو يقـول:

سأرى ما أفعل في قضيتك ومرّت الشهور لم أرى ذلك الشخص الطيب وكنت أنتظر رجوعه كلما مررت على ذلك المرآب الذي كان يركن سيارته فيه وكنت أنظفها باهتمام. وبدأ الوقت يمضي ببطء حتى أيقنت أنّ " الأخ علي رضا" قد نسي قضيتي.

وفي آخر مرة كنت اتفقده لعلي أرى سيارته وقد انشغل تفكيري وتشتت انتباهي ولم انتبه لمسار السيارات حتى اعترضت طريق إحدى السيارات فوجدت نفسي تحت عجلاتها وانتهي بي المطاف في المستشفى ومكثت فيها شهرا كاملا، أقلب عينيا بين جدران الغرفة أحسها سجن وكنت أعد الأيام بفارغ الصبر لكي أخرج وأبحث عنه من جديد وما هي إلاّ أيام خرجت من المستشفى وعدت إلى ذلك المرآب من جديد لعلي أفوز بلقاء الأخ علي وكانت المفاجئة أنّه كان يبحث عني طيلة شهر كامل ليخبرني بأنه يريد اصطحابي إلى أحد المخيمات وقد وفد

إليـه مجموعـة مـن اللاجئـين الجـدد قادمـين مـن الحـدود السـورية القريبـة واسـتقروا بأحـد المخيمـات أمـلا أن يكـون أحـد أقـاربي في ذلـك المخيـم فطـرت فرحـا وتوجهنـا بسـيارته نحـو المخيمـات وبـدأ الصراع في نفسي : هـل أجد أمي وأخي؟ هل أتمكن من رؤيتهما؟

ويتملكـني الخـوف أن أقطـع تلـك المسـافة دون أن أجدهما، التزمـت الصمـت وأخـذت أحـدق في زجـاج السـيارة كأن قـدراتي العقليـة كلهـا تجمـدت وبـدأت المسـافات تطـوى وأخـيرا جـاءت اللحظـة الـتي كنـت أنتظرهـا وقـد مـرت ثـلاث سـنوات عـلى مجيـئي إلى تركيـا.

توقفـت السـيارة وأخذنـا نترجـل ونمـر بـين الخيـم كلمـا شـاهدت سـيدة سـألتها عـن أمـي لكـن المخيـم كان كبـيرا ولـم أبـالي بالمسـافة الـتي قطعتهـا مشـيا في سـبيل أن أجـد أمـي وفجـأة وقفـت وأخـذت أتجـه يمينـا ويسـارا حائـرا وقـد خانتـني الحيلـة وهـدني الخـوف وصرت أصرخ بأعـلى

صـوت:(يـا أمر فـارس يـا أمر فـارس) مغمـض العينـين وإذ بيـد ترتبـت عـلى كتفـي فسـكت وتجمـدت في مـكاني ودون أن ألتفـت وضعـت يـدي عـلى كتفـي وتلمسـت تلـك الأصابـع إنهـا أصابـع أمـي يـد أمـي، والتفـت لهـا وأخـذت أعانقهـا وأبـكي وأقبـل جبينهـا ويدهـا الناعمـة ووسـط الدمـوع والفرح انتبهـت لأخـي الصغـير إنـه :" يـزن " فأخذتـه بـين ذراعـي وبـدأت أعانقـه بشـدة كأن روحـي تعـود إلى جسـمي بعـد غيـاب طويـل وتقاطعـني نظـرات أمـي السـائلة: أيـن أبـوك؟ دون أن تنطـق بكلمـة فـردت عينـاي: بدمـع كالوديـان وسرعان مافهمـت أمـي معـنى تلـك الدمـوع المنهمـرة فأخذتـني مـع أخـي في حضـن واحـد وبتلـك الأحضـان الدافئـة انمحـت كل تلـك المـآسي والمصاعـب الـتي مـررت بهـا وانتهـت مخـاوف الأمـس وبـدأ أمـل الغـد يلـوح في الأفـق بـأن نعـود إلى سـوريا الوطـن.....